

تَجَمَّعَ الْأَحْفَادُ الثَّلَاثَةُ حَوْلَ جَدِّهِمْ، وَهُمْ يَتَصَايَحُونَ : «نُرِيدُ قِصَّةَ لَيْلَانِمْ، وَزَمَّتْ عَيْنَيْهَا، كُلَّمَا بَدَأَتْ بِقِصَّةٍ، إِلَى قِصَّةٍ ثَانِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. فِي الْغَالِبِ، مُسْتَوْحِيَةً تَصَرُّفَاتِهِمْ وَالْمُنَاسَبَاتِ الْآتِيَةِ، أَمَّا الْيَوْمَ، فَتَشْعُرُ وَكَأَنَّ يَنْبُوعَ عَطَائِهَا الْقَصَصِيِّ قَدْ نَضَبَ. فَمَا الْحِيلَةُ؟ وَتَظَلُّ الْأَعْيُنُ السَّيِّئَةُ شَاخِصَةً إِلَيْهَا، تَحْفِرُهَا وَتَسْتَحِبُّ ذَاكِرَتَهَا، فَتَبْتَسِمُ لِلصِّغَارِ الْمُنتَظِرِينَ بِشَوْقٍ، إِنَّهَا قِصَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ، تَحْكِي عَنْ زَوْجَيْنِ طَيِّبَيْنِ وَغَنِيَّيْنِ عَاشَا فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، وَلَمْ يُرْزَقَا وَلَدًا. فَكَانَا يُصَلِّيَانِ إِلَى اللَّهِ، فَوُلِدَ لَهُمَا صَبِيٌّ، فِي الذِّكْرَى الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ لِمَوْلِدِ الصَّبِيِّ، وَكَانَ الْأَطْفَالُ، وَفَرَفَرَتِ السَّعَادَةُ عَلَى الْجَمِيعِ. - وَأَنْتَ يَا حَبِيبِي، سَأَلَ الرَّجُلُ ابْنَهُ صَاحِبَ الْفُورِ : إِلَى رِحْلَةٍ مُتَمَهِّلَةٍ، تَحْمِلُنِي مَعَكُمْ، أَنْتَ وَأُمِّي، فَتَسِيحُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، بِأَسَرِّ الْأَبِّ إِجْرَاءَ الْمُعَامَلَاتِ اللَّازِمَةِ لِهَذِهِ الرَّحْلَةِ، وَبِهَذِهِ الْحَرَارَةِ، فَلَيْسَ أَحَبُّ عَلَى وَبِالسُّرْعَةِ الْقُصْوَى! بَعْدَ أَقَلِّ مِنْ أُسْبُوعٍ، أُنْجِزَتِ الْمُعَامَلَاتُ، وَأُبْحَرَ الْمَرْكَبُ بِالْأُسْرَةِ الصَّغِيرَةِ إِلَى أُورُوبَا. وَبَعْدَ أَيَّامٍ وَأَيَّامٍ، هُنَا، ذَلِكَ الزَّمَانُ. ثُمَّ أَكْمَلْتُ قِصَّتَهَا قَائِلَةً : «عِنْدَمَا وَطِئْتُ أَقْدَامَهُمُ الْأَرْضَ، سَارَ الزَّوْجَانِ بِهَيْمَةِ الشَّبَابِ، وَأَنَّ الصَّبِيَّ بَيْنَهُمَا، يَبْدُو وَكَأَنَّهُ حَفِيدٌ لَا ابْنَ! شَهْرًا بِكَامِلِهِ تَنَقَّلَ الثَّلَاثَةُ السُّعْدَاءُ فِي أَرْجَاءِ أُورُوبَا، وَمِنْ مَرْكَزِ سِيَاحِي إِلَى مُنْتَرَةٍ، حُمَّى عَالِيَةٍ. جُنَّ جُنُونُ الْأَبْوَيْنِ. - مَاتَ؟ شَهَقَ الثَّلَاثَةُ الصِّغَارُ مَعًا، أَبُهَا الْأَحْبَاءُ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ فِيهَا الْفَرَحُ وَالْحُزْنُ، وَفِيهَا السَّعَادَةُ وَالتَّعَاسَةُ، وَنَهَايَتُهَا دَائِمًا الْمَوْتُ. وَهَكَذَا، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاها، عَجُوزَيْنِ مُحْطَمَيْنِ، وَرَجَاءٍ، حَدَّثَ لَهُمَا شَيْءٌ غَرِيبٌ. فَقَدْ ظَهَرَ لَهُ طَيْفُ ابْنِهِ يَقْتَرِبُ مِنْهُ، يُخَاطِبُهُ بِلَهْجَتِهِ الرَّقِيقَةِ : لَا يَا أَبِي عَهْدِي بِكَ مُؤْمِنٌ، وَتَدْرِكُ أَنَّ اللَّهَ حَكَمَهُ فِي كُلِّ مَا يُصَادِفُنَا نَحْنُ الْبَشَرُ. وَسَأَلَهُ أَبُوهُ فِي الْحُلْمِ بِلَهْفَةٍ : وَمَاذَا تُرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَ يَا وَلَدِي؟ أَجَابَهُ ابْنُهُ بِصَوْتِهِ الرَّقِيقِ الْوَاضِحِ شَبْدُ فِي مَدِينَتِنَا جَامِعَةً عَلَى اسْمِي، وَأَنْفَقُ عَلَيْهَا بِسَخَاءٍ، لِأَنِّي سَأَعُودُ إِلَى مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْجَامِعَةِ، وَرَاحَةُ النَّفْسِ وَالْعِزَاءِ. اسْتَفَاقَ الرَّجُلُ، وَمَا تَزَالُ كَلِمَاتُ ابْنِهِ الشَّبِيهَةِ بِالرُّوْبَا»، تَرَنُّ فِي أُذُنَيْهِ. انْزَاحَ جُزْنِيًّا عَنْ صَدْرِهِ! أَقْطَعَ زَوْجَتَهُ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، شَدَّ الرِّحَالَ عَائِدَيْنِ إِلَى وَطَنِهِمَا، وَبَاشَرَا عَلَى الْفُورِ،